العرب
الجمعة 2020/02/07
السنة 42 العدد 11610

فنان سوري يبحث عن الحياة في الموت

في لوحات نزار صابور وجه سوريا الذي غابت ملامحه

العشاء الأخير تحية إلى دا فينشي

من هو الطرف الذي يدين للطرف الآخر؟ سوريا، بإرثها التاريخي والإنساني، أم نزار صابور، الذي أخلص لأدق التفاصيل الروحية وهو ينقل بيئتها وعمارتها وإنسانها؟ ما من فنان تماهى مع محيطه مثلما فعل، وما من فنان حلّق بعيداً على ارتفاع شاهق مثلما حلّق هو. وكان قادرا في كل الحالات على نقل نبضها وانفعالاتها بصدق صادم، محوّلا كل ركن من أركانها إلى أيقونة تاريخية.

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

بعد عام تقريبا من معرضه "نواويس سورية" أطل الفنان التشكيلي السوري نزار صابور على الساحة التشكيلية بعمل منمنم صغير، هو أشبه بعزف منفرد على آلة كمان، استعاد من خلاله الأجواء الدينية التي شكلت مسيرته الفنية، منذ اللحظة الأولى التي حمل فيها الصباغ ليترك أثرا على لوحة بيضاء.

العشاء الأخير، هو عمل أقرب ما يكون إلى إلقاء تحية عابرة على فنان عظيم، ما زال يفرض وجوده على الساحة الفنية بعد 500 عام من الرحيل.

هل هي الأسطورة، أم هي رهبة الموت، ما يطالعنا به نزار في كل مرة يكشف فيها عن عمل من أعماله؟

كل الفنانين بدؤوا تلاميذ، يبذلون الجهد في تعلم تقنيات الرسم والتلوين، كما يتعلم طفل الحبو، إلاّ نزار بدأ رحلته جَرِيا. لا أعلم كيف استطاع أن يقنع معلّميه أن يغضوا الطرف عن رفضه رؤية العالم كما هو.

خرق للمألوف

في الوقت الذي كان الجميع فيه يجتهد لنقل التفاصيل، والحفاظ على النسب، واستخدام كل حيل المنظور الخطي والهوائي، لنقل الواقع كما هو، أو على الأقل كما ينبغي أن يكون عليه. مضى نزار غير عابئ بتلك المهام، يبحث عن واقع هو خلف الواقع، وعن عالم يعيد اختراعه، ويفرض على الجميع الوقوف أمامه برهبة وخشية.

وبينما يتعثر الفنان المبتدئ بنقل المشهد الذي تراه عيناه إلى سطح اللوحة، كان نزار يقرأ المشهد الذي يتلقاه بعقله قبل عينيه، ليسكبه فنا على اللوحة.

نزار صابور

لا بد من تكريس الحياة للفنّ، كما يفعل رجال الدّين

من قال إن اللوحة مجرد مربع أو مستطيل تختلف قياساته من حين لآخر، ولكنها تحافظ دوما على نسبة يحرّم على طلاب الفن خرقها؟ ومثلما اخترق نزار أبعاد اللوحة، اخترق أيضا المواد التي تدخل في صنعها. وكان دائما مقنعا في خرقه المألوف، والمعتاد، والمتفق عليه.

وكما رائد النهضة دافنشي، كان نزار رائدا للتجريب في الساحة التشكيلية السورية، "منذ سنوات، وأنا أستخدم مواد طبيعية لها علاقة بذاكرتنا، ولها أيضا خصوصيتها، فأنا أستخدم (العرجوم) وهو من بقايا عصر الزيتون، ووالدتي كانت تستخدمه للتدفئة، وأنا أجد أن هناك رابطا روحيا بين شجرة الزيتون وبينه، فأسعى لتحويله إلى عمل فني".

وما بدا آنذاك، في سبعينات القرن الماضي، كسرا للتقاليد الفنية، تحوّل عند نزار صابور بمرور الوقت والإصرار إلى قاعدة يُسار على هديها.

لم يكن الفنان السوري يوما ضيّق الأفق، سجين فكر ديني متعصب، لذلك يجب أن لا تضللنا العناوين التي يختارها لأعماله أو مواضيعه.

تجربة نزار صابور مع "نواويس سورية"، بحثا عن الخلود، ليست لشخصه، بل هي لأفراد آخرين، عرف بعضهم عن قرب، وآخرين تعرف إليهم من آثارهم، هي محاولة لإلحاق الهزيمة بالموت والدمار، هذا الموت الذي غلّف سوريا بغلاف من الحزن والكآبة واليأس، انتصر عليه الفنان بالقول إن في سوريا ما يستحق أن يعاش لأجله، طالما وُجد آخرون مهمون بالنسبة إليه، آخرون يستحقون أن يطلق عليهم لقب قديسي هذا الزمان.

لم يكن صعبا، كما يقول نزار، العثور على شخصيات متميزة تستحق أن تكون أيقونة. بدأ بحثه من فترة الخمسينات، ليختار عشرين شخصية، ووجد نفسه مضطرا لرفع العدد إلى ثلاثين، وتوقف أخيرا عند 56 شخصية، استغرق إنجازها عامين من الجهد.

الأعمال الـ56 هي في الحقيقة عمل واحد، عمل أراد من خلاله الفنان تكريم بلده، مذكرا العالم بالحالة السورية الصعبة، التي "لم يشهد التاريخ مثيلا لقسوتها" كما يقول.

الفن بالنسبة لنزار صابور ليس هواية أو احترافا، إنه طريقة حياة، يتسلل من خلالها إلى كل التفاصيل اليومية للفنان، يشاركه أحاسيسه وأفكاره، التي تتشكل من خلال معايشة الحياة والهموم المحيطة به. "عمل الفنان ليس أن يرسم فقط" كما يؤكد، بل أن يبحث عن الفكرة ويحضر لولادتها.

"لا بد من تكريس الحياة للفنّ، كما يفعل رجال الدّين"، هكذا يقول. ومع ذلك يمرُّ الفنان بفترات يسميها "مارقة" تفلت أحيانا من الرقابة.

> **الفنان السوري يحاول في أعماله إلحاق الهزيمة بالموت والدمار، هذا الموت الذي غلّف سوريا بغلاف من الحزن والكآبة واليأس**

ويتابع "إن الفن ورطة وبلاء"، ونزار قد ابتلي فيها منذ أن كان طالبا صغيرا يحب الرسم، ليتابع هذا الشغف دون مشرف أو مساعد، غير عابئ بالتفاصيل الصغيرة التي شغلت آخرين.

ويقول إن انتسابه لكلية الفنون الجميلة، في دمشق، لم يغيّر كثيرا من طبيعة علاقته بالفن، لينكب على العمل باجتهاد. ومع مرور الوقت، حدث كل شيء، متاعب ومُتع دون حدود، "شعرت أني متورط، لكن لا خلاص، حياتي أصبحت له.. الفن".

نعوت وحصار

لم يكن للأزمة السورية، التي بدأت عام 2011، أن تمرّ في حياته مرور الكرام، ليخرج إلينا بمجموعة أعمال حملت عنوانا واحدا هو "نعوت"، نعوت لكل مكونات سوريا، تلتها مجموعة دوائر حملت عنوان "حصار".

أما عمله "يوميات الحب والحرب" فكان كتابا، من مجموعة كتب مجسمة، حملت أفكارا منوعة، عددها ثلاثون كتابا، يتألف كل منها من سبع أوراق خشبية، يحتويها مغلف يحمل عنوانا مميزا أشبه ما يكون بمذكرات يومية.

الأزمة التي فرضت وجودها على حياته، دفعته للعمل، وزادت من عزلته الروحية، لينسحب من الحياة الصاخبة، "أمام الموت والدمار، يصبح كل شيء غير ملائم".

وعندما أطل من عزلته، ليرى اليابسة وقد انحسرت عنها مياه الطوفان، اعترف نزار أنه رفض بوعي إجراء أحاديث صحافية، فكيف تكون لمثل تلك اللقاءات أهمية، وهو القائل "أرى الحديث عن الفنّ ضربا من الكماليات في غير مكانها ونهر الموت يجري في بلدي. أعيش حالة انتظار، انتظار النهاية، نهاية كلّ هذا الجنون، لنعود إلى الحياة". "الحياة أقوى، وستمضي.." هكذا تحدث نزار.

الفن ابتكار سحري لإسقاط جدران العزل

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

يكفي أن يُشيّد جدار عازل وعدواني على أرض أرهقها الظلم ولم تُبطل عزيمتها المشقات حتى يكون هذا الجدار دعوة للخيال البشري الفني، في قراراته، بأن يخترقه ثائرا بصدق ومنتصرا على الأرض كما في الخيال.

اليوم، وعند التأمل في الجدران الباطونية والأسلاك الشائكة والحواجز الحديدية التي شيدتها ولا تزال السلطة اللبنانية، حتى لحظة كتابة هذا المقال، في وجه الثوار اللبنانيين، تحضرني رغبة في مقاربة ما بين صورتين فوتوغرافيتين وفنيتين، إحداهما من معرض سابق للمصوّر الفوتوغرافي التشيكي جوزيف كودبلكا، والثانية لعمل فني حققته الفنانة اللبنانية رولا عبدو مؤخرا على جدار الفصل الذي شيّدته الحكومة اللبنانية لتعزل المتظاهرين الثوار عن سرايا الحكومة ومجلس النواب.

الصورة الأولى المقصودة هي من معرض جوزيف كوديلكا عنوانه "الجدار"، حيث تناول المصوّر من ناحية، الجدار العنصري الذي بنته إسرائيل، ومن ناحية أخرى بيروت في نهاية الحرب الأهلية وجدرانها المعبّرة عن عزلة داخلية تخص أهل البلد هشمتها الشظايا والرصاص.

أما الصورة الثانية، فهي من عمل للفنانة اللبنانية رولا عبدو تتمثل في يدين متقابلتين تحاولان شق "جدار العار"، كما جرى على تسميته، لكي تسمحا "سحريا" للثوار بالدخول إلى الساحات العامة التي منعتها عنهم السلطة.

ليس بعيدا عن تلكما اليدين، كتب أحد الثوار "هذه ليست فلسطين المحتلة"، دامغا بتلك الكلمات على حق الحصول على "تأشيرة الدخول" لكل لبناني شريف ثار وتغذّى خياله على فنية ثورة اجترحت ألوانها من تناقضات هائلة استطاعت إلى اليوم الانتصار عليها وعلى كل الفخاخ المنصوبة لها.

يتلاقى العملان، صورة جوزيف كوديلكا، وصورة رولا عبدو في خرقهما السحري للجدران ورمزيتها، انتصارا قادما لكل من رُفعتا ضده.

الصورة الأولى والتي هي الأجمل على الإطلاق من مجموعة المصوّر جوزيف كوديلكا، بدت يوم عرضها، وعن بعد في الصالة الرحبة، وكأنها مشغولة ديجيتاليا.

لكن عندما اقتربت منها اكتشفت أنها ليست كذلك البتة. فما بدا في البداية كأنها نجوم افتراضية رصّعت سماء ليلية انسكبت على حدود المنشآت المعمارية، ليست إلاّ صفائح سوداء اخترقتها رصاصات وشظايا حقيقية صانعة من البعُد الجاثم خلف الجدار فضاء مفتوحا على زمن ومزاج آخر أقل تشاؤما.

صورة هي رؤية أكثر منها صورة استعراضية تريد أن توثّق جرحا كان وانتهى.

في صورة جوزيف كوديلكا انتصر الواقع المحض، المُتمثل في صفائح معدنية مُعتمة اخترقها الرصاص، على الوهم المُتمثل في نجوم افتراضية مُتخايلة انهارت عندما اقتربت منها في صالة العرض، ولكن هذا الانهيار، انهيار الوهم، حدث دون أن يغيّب بريق "النجوم" وأثرها الدامغ في النفس.

انتصر الواقع، غير المعدل ديجيتاليا، ولكن ليس خارج مزاج الخيال الذي فتح به الفنان/ المصوّر، مُستعينا بصدامية العتمة والضوء، أفقا امتد عميقا ما وراء الجدار وما وراء العتمة حيث رزح الضوء منتظرا مُريديه.

أما بالنسبة لعمل الفنانة رولا عبدو، فالصورة الليلية الفوتوغرافية التي اجتاحت شبكات التواصل الاجتماعي، هي أهم من العمل بأشواط. في هذه الصورة بدا العمل الغرافيتي لليدين المتوسطتين للجدار ليس أكثر من مفتاح سحري في مزلاج بوابة باطونية أفقية فُتحت جاعلة من الأرض جسرا أخذ شكل مساحة متوسعة ومتكونة صعودا، فلقاء مع سماء ليلية داكنة، ومرورا ما بين مباني وسط بيروت، ووصولا سحريا/ واقعيا إلى مبنى مجلس نواب الشعب، الممنوع عن الشعب.

> **صورتا جوزيف كوديلكا ورولا عبدو تلتقيان في خرقهما السحري للجدران ورمزيتها، انتصارا قادما لكل من رُفعتا ضده**

صورة فوتوغرافية واجهت الواقع بالخيال ليس عبر جعله عنصرا منفصلا عنه أو احتمالا مختلفا عنه، بل عبر تصميمه في صلب المشهد الواقعي/ الغرائبي، الذي من دونه لا يستقيم "المنطق"، منطق الصورة، ولا منطق معنى الواقع الذي يعيشه اللبنانيون منذ أكثر من ثلاثة أشهر، أي منذ انطلاقة الثورة اللبنانية.

"ندعم الثوار، شرط أن لا يثوروا" تعبير يمت إلى عالم الجدران المنهارة سلفاً، كالتي ذكرناها آنفا، بقوة الخيال الخلاّق لواقع مختلف، وهو تعبير مُوثّق انتشر على صفحات التواصل الاجتماعي والأقرب توصيفا لما تشكل الثورة اللبنانية بالنسبة للسلطة. فالثورة مقبولة شرط أن لا تكون أساسا.

ولعل تعبيرا كهذا التعبير، الذي ليس هو إلاّ مجرد مثال على مئات التعابير الغرائبية التي واجهت بها السلطة الثورة، هو ما شحذ مخيلة أحد الثوار الفنانين في نشر صورة بالغة الواقعية عن جدار العار، وعليه ليس إلاّ هذه الكتابة العرضية "مجلس النواب الحرامية".

كتابة تتوسط خطين أحمرين. تبيّن لاحقا بأن هذا الغرافيتي ليس إلاّ عملا افتراضيا تخايله أحد الفنانين/ الثوار مجهولي الهوية الفردية، بينما الجدار على أرض الواقع مشبع بأعمال غرافيتية مُختلفة تراكم بعضها فوق الآخر.

إنه ليس إلاّ جدارا خياليا/ بهلوانيا آخر، وهو تمثيل إضافي بجثة الجدار الحقيقي وإعدام قابلية صموده أمام ثوار "خلطوا" الواقع المرّ بالخيال المحرّر واجترعوا الخلطة السحرية ترياقا بطعم الحصى المطحون ضد ظلامية السلطة الحاكمة.

جدار خيالي بهلواني مُربك (غرافيتي للفنانة اللبنانية رولا عبدو)